في ربوع البائسين

يوم بين العميان

بقلم الأستاذ محمد عبد الكريم

في معهد العميان :

هناك في شارع المطرية وعلى مسيرة بضع دقائق من محطة الزيتون يرى السائر دار فسيحة تحيط بها حديقة جميلة وعلى مدخلها لوحة صغيرة تحمل اسم "الجمعية المصرية لرعاية العميان"

هذا معهد العميان ولتاريخه قصة طويلة سنلخصها فيما بعد . وكل ما يهمنا أن نذكره الآن هو أن هذا المعهد قد انتقل من يد الجمعية التي تحمل اسمه إلى حضانة وزارة المعارف وأنه المعهد الحكومي الوحيد الذي يعنى بأمر العميان في مصر جمعاء .

وارتقيت الدرج الرخامي الموصل إلى الإدارة حتى إذا بلغت نهايته استقبلتني ناظرة المعهد الآنسة زينب مرسي ، وقد أبدت ارتياحها وترحيبها بهذه الزيارة التي ستتيح للبعض أن يعرفوا شيئا عن هذا المعهد وتلفت الأنظار إلى مؤسسة إصلاحية جديرة بكل عناية وتشجيع .

وانتقلت إلى الكلام عن المعهد فذكرت أن لديها خمسين طالبا تتراوح أعمارهم بين سبعة أعوام وثلاثة عشر يتعلمون ويقيمون بالمعهد ومدة الدراسة خمس سنوات يسلم الغلام بعدها إلى ذويه بعد أن يكون قد تعلم صناعة تغنيه عن السؤال . أما الأولاد فيتعلمون علاوة على الأشغال اليدوية التي تشمل صناعة الخيزران وحبك القش والصوف مواد ثقافية أخرى كالقرآن الكريم للمسلمين ، والتاريخ والجغرافيا والتربية الاجتماعية والحساب وعلم الصحة أما القراءة والكتابة فيتعلمونها بطريقة الضغط بجهاز خاص يبرز حروفا رمزية على الورق وهي الطريقة المعروفة بطريقة بريل Braille واستطردت الآنسة في حديثها فقالت إن لديها غير هذا المعهد الدراسي مصنعا لكبار العميان يقومون فيه بإنتاج كثير من مصنوعات القش والخيزران وأنها إذا أسفت لشيء فأسفها لقلة إقبال الناس على اقتناء منتجات هؤلاء البائسين رغم جودتها ورخص ثمنها .

وانتقلت بنا إلى حجرات الدراسة فشهدنا الصغار يدرسون القرآن والتفسير، وقد لاحظت أن المعهد لا يعنى بتعليم التجويد مع أنه فن مريح وهو خير ما يتناسب مع حالة اللاجئين .

وانتقلنا إلى فصل آخر حيث رأينا الصغار يقومون بعمل تماثيل من عجينة خاصة، وقد عجبت إذ أخبرنى المعلم بأن ما نشهده هو درس فى التاريخ وأن ما يفعله الأولاد هو تصوير مشاهد القصة بأيديهم كما يتخيلونها، وقد رأيت بين أنامل الأطفال تماثيل لكراسى وأسلحة وأشخاص ، وقد أثار إعجابى تلميذ صغير قدم إلىّ تمثالا طينيا يمثل شخصا ، حتى إذا رددته إليه صاح فى سذاجة تتفق مع سنه الصغيرة قائلا : "ياسلام... أهو حضرتك كسرت رقبة قطر الندى ... !؟ " قلت : ومن تكون " قطر الندى هذه؟ " قال: " بنت السلطان اللى بقالى أعمل وأصلح فيها نص ساعة ... !؟ "

وحضرنا بعد ذلك درسا فى الموسيقى ، ولشد ما أثار إشفاقى مشهد هؤلاء الضريرين وهم يتحسسون أوتار القيثارة أو العود ثم يتنقلون بينها بأنامل واهنة صغيرة فيطلقون من صرير أقواسهم وضربات ريشاتهم أنغاما شجية محزنة تستدر الرحمة وتثير الحنان .

فرصة عظيمة ... ! :

وصحبتنا الآنسة بعد ذلك إلى معرض المصنوعات ، فإذا بنا فى مخزن اكتظ بكل نافع وملئ بالقيم المفيد، ووقفت بين المعروضات أشاهد صناعة متقنة يعجز عن عملها المبصرون، ثم أتأمل تلك الأرقام المتواضعة التى تحملها بطاقات كل منها. وإنى أسألك أيها القارئ الكريم لا لصالح العميان فحسب ، بل لخيرك ولصالح جيبك، أسألك أن تزور معهد العميان بالزيتون وأن تعرج أيضا على مصنع الفرش القائم كذلك بتلك الضاحية مما سأقص عليك نبأه فى هذه العجالة ، تزورهما لترى بعينيك صنع من لا عيون لهم ، وتشهد بناظريك عمل من فقدوا أبصارهم وعدموا أنظارهم .

سترى الصناعة المتقنة تضحى بثمن لايتصوره عقل . فهذه سلة للطعام متينة جميلة تباع بمائة مليم لن تجدها فى غير المعهد بمائتين ، وتلك زهرية للورد بثلاث عيون مصنوعة من الصفصاف والخيزران ، غاية فى الحسن والرونق ، تزين صالتك أو حجرة طعامك ، بثلاثمائة مليم لا أكثر ، وهذا يا آباء الأولاد مقعد للأولاد ، بديع ... مريح ... مدهش وبثمن مدهش أيضا بثلاثمائة مليم تدفعونها لغير العميان ثمنا للعبة صغيرة من صنع أوروبا أو اليابان .

وهناك كل ما يلزم لصغاركم وكباركم : لعب من القش أو الصوف ، سجاجيد صغيرة ، شماعات ، سلات ، أوعية كبيرة للغسيل ، أطقم خيزران متينة ، مفارش ، حافظات

للورق كل حال "رخيص وكويس وابن ناس ... ! " ومضيت أتأمل ما يحيط بى وتقدمت الناظرة تسألنى رأيى ، قلت : معجب بغير شك ، وحبذا لو ضاعف اللاجئون جهودهم وأكثروا من إنتاجهم ، قالت : نعم نحن نعمل وننتج ، ولكن أين المشترون ، نحن رغم ماترى لا نبيع بأكثر من خمسة جنيهات فى الشهر . . . ثم أطرقت وقالت وقد بدا عليها التأثر : " إنى لأتألم إذ أرى إنتاج هؤلاء المساكين يكدس فى المخازن. نحن هنا فى معزل عن الناس وكم وددت لو كثر الزوار ليروا ما نصنع ويشجعوا هؤلاء اليائسين بالإقبال على معروضاتهم ، ثم صمتت تقول إنى أسألك أن تذيع فى صحيفة " الشؤون الاجتماعية " رجائى ... قلت يا سيدتى : إنما تسألين واجبا وتطلبين حقا وما لنا لا ندعو القراء لزيارة هذا المعهد واقتناء منتجاته وفى إقبال الناس عليه خيرلهم قدر ما فيه من تشجيع لليائس الضرير .

إجراءات غريبة :

على أن تبعة الجمهور فى كساد منتجات العميان لا تقاس بإجراءات مصالح الحكومة له وإحجامها عن شراء منتجاته ، ولعلك تعجب إذ تعلم أن وزارة المعارف تشترى ما يلزمها من سلال لمدارسها ولديونها العام بمناقصة عامة يشترك فيها المعهد كأى متجر أو مصنع ؛ وكثيرا ما يرسو العطاء على غير المعهد نظرا لأن المصنع الذى يفوز بالعطاء هو دائما المتجر الذى يقوم ببيع الخامات للمعهد ولغير المعهد، وهولهذا يعرض سعرا لايقوى المعهد على منافسته فيه.

ولقد روى لى كاتب المعهد أن قسما من أقسام وزارة الدفاع طرح فى المناقصة حشو كراسيه، فلما رسا العطاء على المعهد طلب منه تأمينا لا عن العطاء وحده بل عن الكراسى التى ستنقل إلى المعهد لحشوها، وهكذا تأبى تلك المصلحة الحكومية أن تأتمن مصلحة حكومية مثلها ، وتطالبها بضمان مالى لتطمئن إلى مالها . فهل رأيت أعجب من هذا ؟ نثبت هذا ونرجو أن تعيروزارتا المعارف والمالية هذا الأمر جانبا من عنايتهما ، وأنا نتأمل أن نرى فى القريب وزارة المالية تصدر منشورا إلى كافة المصالح والوزارات لترسل كراسيها التى تريد حشوها وتبعث بطلباتها عن السلال التى تلزمها، تبعث بها إلى معهد العميان فإن ضاق بطلبات المصالح وهو سيضيق بغير شك يضاعف عدد صناعه وتوسع أعماله المنتجة بما يهيئ أسباب الرزق لهؤلاء العميان الذين يتضورون جوعا فى كل مكان وقل أن يجدوا سبيلا للقوت فى غير التسول والسؤال .

فى مصنع القش والخيزران :

و يتبع المعهد كما أسلفنا مصنع صغير به ثمانية وأربعون عاملا من العميان وعليهم يقوم أكثر الإنتاج . مررنا بهذا المصنع فرأينا عماله جادين منكبين على عملهم ، هـذا يعمل فى سلة وذاك يقوم بصنع كرسى وثالث يجهز مشحبا ، على أنهم مع ما يبـذلونه من جهد لا ينالون الأجر الكافى ، وحسبنا أن نذكر أن متوسط أجورهم أربعة قروش ونصف مع أنهم رجال وكلهم أرباب أسر لديهم زوجات وأطفال .

وعمال هذا المصنع بعضهم من خريجى المعهد والبعض من الخارج ، وكم وددنا لو قضى بنقل كل خريجى المعهد بعد إتمام دراستهم إلى المصنع ليكتسبوا من العمل فيه قوتهم .

ذلك بأن المعهد لا يعنى بمستقبل طلبته ، فهم يقضون به مدة الدراسة ، ثم يخرجون منه إلى دور ذويهم أو إلى الشارع إذا عدموا القريب دون أن يهيأ لهم العمل مع أن أهم ما يرجى لهم هو أن يكفل لهم العيش ليكفوا أنفسهم والناس ذل التسول .

فى ملجأ ومصنع الفُرش :

وتركنا معهد وزارة المعـارف وسرنا فى شارع المطرية حتى بلغنا ملجأ ومصنع الفرش الذى يتبع الجمعية المصرية لرعاية العميان .

و يقوم الملجأ والمصنع فى دار فسيحة من ثلاثة طوابق تحيط بها حديقة صغيرة بديعـة التنسيق ، وقد قصر العمـل فيه على صناعة الفرش التى ينتج منها عددا كبيرا فى كل يوم ، و يورد أكثر مصنوعاته للجيش والمصالح الحكومية .

وبدأ مديره الأستاذ رضوان يطوف بنا حجرات مصنعه فشاهدنا الفرشة من ساعة أن تكون شـعرا خاما إلى أن تصير كاملة صالحة للاستعمال . وخامات المصنع كلها من إنتـاج البلد ، وقد كان يستورد الشعر إلى عهد قريب من الخارج غير أن ناظره النشيط أثر — بسبب ارتفاع أسعار الشعر اليوم — أن يستخدم الشعر الذى يتخلف فى سلخانة العـاصمة فخصص عاملا يتولى غسله وترجيله وحبكه فى لفات ، فوفر بذلك مبالغ كبيرة كانت تدفع للتـاجر الأجنبى . وانتقلنـا إلى ردهة المصنع حيث أحاط الفتية بموائد العمل كل منكب على ما بيده لا يشغله عنه شاغل ، هذا يركب الشعر فى الخشب وذاك يقصه وثالث يهذبه ، كل هذا يتم فى سرعة فائقة رغم استخدام بعض الآلات الحـادة . ومضينا بعـد ذلك إلى مخزن المصنع فرأينا آلاف الفرش المختلفة الأنواع المتباينة الحجوم والأشكال — هذه للكنس وتلك للمسح وثالثة للسقوف ورابعة لدورات المياه وغيرها مما تربو أنواعه على العشرين .

قصة رعاية العميان فى مصر :

قص على أحد معلمى المصنع واسمه " محمد ابراهيم " قصة رعاية العميان فى مصر منذ نشأتها قال :

"منذ اثنتين وأربعين سنة هبطت أرض مصر سيدة انجليزية من المشتغلات بالخدمة الاجتماعية اسمها مسز ارمتيتش ، وقد راعتها كثرة العميان فى هذا البلد فكلفت الدكتور سكوت الإخصائى بتقديم تقرير عما يراه لعلاج هذه الحال . وعملا بما ورد بتقريره قامت تلك السيدة النبيلة بأول عمل جدى لإصلاح شأن العميان فاشترت دارا بضاحية الزيتون وأعدتها ملجأ ومصنعا للعميان ، ولم تلق مؤسسة العميان الأولى فى بادئ الأمر اقبالا غير أنها لم تلبث بفضل الجهود التى بذلتها صاحبتها أن جذبت اليها العميان من كل صوب وحدب .

"وقد كان لى حظ الالتحاق بتلك المؤسسة من وقت إنشائها . والحق أنى ماوجدت مكانا أكثر عناية بالعميان من ملجأ أرمتيتش ، فقد كانت تعاملنا كأبنائها ، كانت تكفل لنا كل شىء من قوت وعلاج ومسكن ، وكانت تعطى اللاجئ منا فوق ذلك ستين قرشا كل شهر ، ولما تجاوزت نفقات الملجأ الأول والمصنع الذى يتبعه حدود الجهد الفردى إذ ربت فى آخر الأمر عن ألف وخمسمائة جنيه فى السنة اضطرت المؤسسة إلى الاستنجاد بذوى الأريحية فكونت جمعية من الانجليز والمصريين أسلمت اليهم الأمر وساهمت فى النفقات بأكبر نصيب . وكان بين أعضاء هذه الجمعية بعض الكبراء كفتحى باشا ورفيع بك مشكى وأمين باشا أنيس ؛ وظلت دار مواساة العميان وتربيتهم تعمل حتى قامت الجمعية المصرية لرعاية العميان" .

وإلى هنا انتهى حديثه فأخذ الأستاذ رضوان يكمل لى القصة قال :

"ألفت الجمعية المصرية لرعاية العميان فى مارس سنة ١٩٣٣ من بعض الكبراء المصريين وبعد أن اجتمع لديها من الاشتراكات مبلغ يكفى للبدء فى العمل استأجرت فى سبتمبر من ذات السنة منزلا بشارع المطرية بإيجار شهرى قدره عشرة جنيهات أعدته معهدا للأولاد وضمت إليه فضاء ليكون ملعبا لهم وعينت له ناظرة ومدرسات فنيات ، عند ذلك أسلمت "جمعية مواساة العميان وتربيتهم" — وهى الجمعية الأولى التى جلونا أمرها — زمام عميانها إلى الجمعية الجديدة التى بدأت العمل فى معهدها ومصنعها بعد وقت قصير .

"ولاقت الجمعية شأن كل جماعات البر فى هذا البلد متاعب مالية كادت تودى بها لولا مثابرة القائمين بأمرها وصبرهم وجهادهم لإبقائها والنهوض بها . وحسبك أن تعلم أنها

قد منيت فى عام ١٩٣٤ بعجز فى ماليتها، غير أن وزارة المعارف بفضل وساطة رعاة الجمعية سارعت إلى مد يد المعونة إلى الجمعية واشترطت عليها أن تتولى الوزارة ادارة المعهد والمصنع فرضيت الجمعية بذلك وسلمتهما إلى الوزارة فى أوائل عام ١٩٣٥

"ومضت الجمعية بعد ذلك تعد عدتها للقيام بعمل جديد بعد أن أسلمت مانع للحكومة، حتى إذا كان صيف عام ١٩٣٧ استأجرت هذه الدار وأعدتها لكبار العميان، وهى اليوم تضم ستين أعمى تطعمهم وتؤوى جانبا منهم وتعطى الداخلى منهم قرشا كل يوم، أما الذى يبيت خارج المعهد فيتناول قرشا ونصف قرش على أنها رأت ألا تصرف المكافأة كلها إلى العاجزين بل عمدت إلى حجز جانب منها يرد إليهم عند مبارحتهم المصنع ليستعينوا به على العيش. ولما لمست الحكومة أهمية العمل الذى تقوم به الجمعية قررت وزارة الداخلية فى عام ١٩٣٦ منحها إعانة تقرب من الأربعمائة جنيه وأعطتها المالية أرضا من أملاك الدولة بالعجوزة مساحتها ستة آلاف متر، وفى عام ١٩٣٧ قررت لها وزارة المعارف إعانة قدرها خمسمائة جنيه وفى عام ١٩٣٩ بلغت إعانة الحكومة أكثر من ثلاثة آلاف جنيه.

"وقد اكتسبت الجمعية صفة دولية باشتراكها فى الاتحاد الدولى لرعاية العميان وحضور مندوبها المؤتمر العالمى الذى عقد بالخارج كما أن مصنعها خاضع لإشراف وزارة المعارف التى تبعث هى ووزارة الشؤون الاجتماعية ووزارة الداخلية بمفتشيها بين حين وحين.

وبعد أن أمدنى حضرة الناظر بهذه البيانات قال: "ونعلك تدرك مقدار ما بلغناه من نجاح إذ تعلم أن ما بعناه فى عام ١٩٤٠ وحده قد قاربت قيمته ألفا وثلاثمائة جنيه وهو مبلغ يدل دلالة واضحة على تحسن المستوى الصناعى والانتاجى بالملجأ، وأدل على هذا التحسن أن الجمعية اشتركت فى المعرض النوعى للصناعات فى العام الماضى وفازت بالمدالية الذهبية والمكافأة المالية.

"على أن الجمعية لا زالت بحاجة شديدة إلى معونة الموسرين وأولى البر، ذلك بأن ما تجمعه من الاشتراكات والتبرعات ضئيل، وحسبك أن تعلم أن الاشتراكات فى العام الماضى لم تتجاوز الخمسين جنيها ولا تزيد التبرعات على ثلاثمائة جنيه منها مائة جنيه جاد بها سعادة محمد بك حسن العبد وخمسون تبرع بها رفعة على ماهر باشا".

واختتم الأستاذ حديثه فقال: "إن مسألة العميان جديرة بالعناية، فالبلاد تموج بهم وقد أعدت هذه الجمعية الأساس الصالح للنهوض بمستواهم، فعلى الأمة أن تمد يد المعونة إليها لتتسع أعمالها وتؤدى للبلاد رسالتها كما ينبغى".

محمد عبد الكريم